بريدٌ من السماءِ

رسائلٌ قرآنيَّةٌ إلى القلبِ الظمآنِ

محمد الملوكي

بريدٌ من السماءِ

رسائلُ قرآنيَّةٌ إلى القلبِ الظمآنِ

محمد الملوكي

عزيزي القارئ

لعلَّكَ تساءلتَ، وأنتَ تُمسكُ هذا الكتابَ، عن سرِّ اسمه: لِمَ «بريدٌ من السماء»؟ فدَعْني أُفضِ إليكَ بما لم أَقُلْه في غيرِ هذا الموضعِ. لم أختَرِ الاسمَ تأنُّقًا في العبارةِ، ولا طلبًا لوَقْعٍ في الأُذُنِ؛ إنّما اخترتُه لأنّه أصدقُ ما يَصِفُ حقيقةَ ما بين يديكَ.

أمّا «البريدُ»، فلأنَّ ما تَقرؤُه ليس كلامًا نبتَ في الأرضِ، بل رسالةٌ قطعتْ إليكَ طريقًا لا تَقطعُه رسالةٌ سواها: صدرتْ من عندِ ربِّ العرشِ، فحملَها الرُّوحُ الأمينُ إلى قلبِ خيرِ الخَلقِ ﷺ، ثمَّ تَناقلتْها الصدورُ الطاهرةُ جيلًا في إثرِ جيلٍ، محفوظةً لم يَسقُطْ منها حرفٌ، حتى بلغتْكَ بعدَ أربعةَ عشرَ قرنًا كما صدرتْ أوَّلَ مرّةٍ. فأيُّ بريدٍ حُفِظَ هذا الحفظَ، وسَلِمَ في طريقِه الطويلِ من كلِّ تحريفٍ؟

وأمّا «من السماء»، فلأنَّ كلَّ خيرٍ إنّما يَنزلُ من عَلُ؛ فمن السماءِ يَنزلُ الغيثُ، ومنها تَتنزَّلُ الرحمةُ، ومنها جاءَ هذا الكلامُ. ثمَّ إنَّ رسائلَ الأرضِ يُدرِكُها ما يُدرِكُ أهلَها: يَبهَتُ حِبرُها، ويَنساكَ كاتبُها فتَنقطِعُ. أمّا هذا البريدُ فمُرسِلُه الحيُّ الَّذي لا يموتُ، القيُّومُ الَّذي لا يَغفُلُ ولا يَنسى؛ كتبَ إليكَ قبلَ أن تُخلَقَ، وأبقى لكَ رسالتَه تَنتظِرُكَ حتى جئتَ. فأيُّ شرفٍ للعبدِ الضعيفِ من طينٍ أن يَذكُرَه مَلِكُ المُلوكِ بكتابٍ يَتنزَّلُ إليه من فوقِ سبعِ سماواتٍ؟

وأمّا «القلبُ الظمآنُ»، فلأنّي لم أكتُبْ لكلِّ قلبٍ، بل لقلبٍ يَعرِفُ أنّه عطشانُ. فقد جُبِلَ الإنسانُ على ظمأٍ لا يُطفِئُه مالٌ ولا جاهٌ ولا لذّةٌ عابرةٌ؛ ظمأٌ إلى معنًى، وإلى سكينةٍ، وإلى مَن خلقَه. وكم مِن قلبٍ طافَ على مَناهلِ الدنيا كلِّها فما ازدادَ إلا غُلّةً، حتى إذا

رَدَّه اللهُ إلى كلامِه رَوِيَ. لكنَّ الماءَ لا يَنفعُ إلا مَن أحسَّ بعطشِه فمَدَّ إليه يدَه؛ فأمّا مَن ظنَّ نفسَه ريّانَ وهو ظمآنُ، فيَمُرُّ على العينِ الصافيةِ ولا يَشرَبُ.

وهكذا التقى طرفا الاسمِ في معنًى واحدٍ: ماءٌ يَنزِلُ من السماءِ إلى أرضٍ هامدةٍ فتَهتَزُّ وتَربو، ورسائلُ تَتنزَّلُ من السماءِ إلى قلبٍ ظمِئَ فيَحيا ويَرتوي. فما هذا الكتابُ إلا محاولةٌ أن أُدنِيَ إليكَ فَمَ العينِ، وأُشيرَ بإصبعي وأقولَ: هاهنا الماءُ الَّذي طالَ بحثُكَ عنه في غيرِ مَظانِّه.

فإذا فرغتَ من هذه الأوراقِ فلا تَقِفْ عندها؛ فإنّها ليست الرسالةَ، إنّما هي إشارةٌ إليها. والرسالةُ الحقُّ في المُصحفِ الَّذي عندَك، يَنتظِرُ أن تَفُضَّ خَتْمَه بعدَ طُولِ هَجْرٍ. أسألُ اللهَ أن يَجعلَكَ ممّن إذا تُلِيَتْ عليه آياتُه زادتْه إيمانًا وطُمأنينةً، وأن يَسقِيَ قلبَكَ من هذا البريدِ السماويِّ رِيًّا لا ظمأَ بعدَه.

محمد الملوكي – حسان الرباط

01-08-2026

الحسابات الرسمية للكاتب

El Mllouki Mohamed

elmllouki_off

@ELMLLOUKI_OFF

فِهْرِسُ الرَّسائِلِ

- مقدّمةُ الكتابِ
- الأُولى — رِسَالَةٌ إِلَى قَلْبٍ لَا يَهْدَأُ
- الثانية — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ يَخَافُ الغَدَ
- الثالثة — رِسَالَةٌ إِلَى صَابِرٍ كَادَ يَنْكَسِرُ
- الرابعة — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الرَّجَاءِ
- الخامسة — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ دُعَاءَهُ لَا يُسْمَعُ
- السادسة — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ ضَاقَتْ بِهِ الأَرْضُ
- السابعة — رِسَالَةٌ إِلَى قَلْبٍ يَظُنُّ نَفْسَهُ وَحِيدًا
- الثامنة — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ فَقَدَ حَبِيبًا
- التاسعة — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَنْهَكَتْهُ النِّعَمُ فَنَسِيَ المُنْعِمَ
- العاشرة — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ يَخَافُ مَا لَمْ يَقَعْ
- الحاديةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ فَخَابَ
- الثانيةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ ظُلِمَ وَلَمْ يَجِدْ نَاصِرًا
- الثالثةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَثْقَلَهُ الفَقْرُ
- الرابعةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ
- الخامسةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ نَسِيَ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرٌ
- السادسةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ تَعِبَ مِنْ نَفْسِهِ
- السابعةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ فَاتَهُ القِطَارُ فَظَنَّ الحَيَاةَ فَاتَتْ
- الثامنةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى قَلْبٍ قَسَا فَاشْتَاقَ إِلَى الرِّقَّةِ
- التاسعةَ عشْرةَ — رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَثْقَلَهُ الحَسَدُ وَنَظَرُ النَّاسِ
- العشرونَ — رِسَالَةُ الوَدَاعِ: إِلَى مَنْ سَيُغْلِقُ هَذَا الكِتَابَ.

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

الحَمْدُ للهِ الَّذي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ ولم يجعلْ له عِوَجًا، وجعله للقلوبِ رَبيعًا، وللصُّدورِ شِفاءً، وللحَيارى في ظُلَمِ الطريقِ سِراجًا، والصلاةُ والسلامُ على مَن كان خُلُقُهُ القرآنَ، سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَن تلا كتابَ اللهِ فارتَجَّ له فُؤادُهُ، واغْرَوْرَقَتْ بالدمعِ عيناهُ.

أمّا بعدُ، يا صاحِبي الَّذي حملَ هذا الكتابَ بين يديه: فإنَّ القرآنَ لم يَنزلْ ليُتْلى على الأمواتِ وحدَهم، ولا ليُزيَّنَ به رفٌّ في بيتٍ لا تُفتَحُ فيه دَفَّتاهُ إلا في مأتمٍ أو مُصيبةٍ. إنّما نَزلَ رسائلَ حيّةً، كأنَّ كلَّ آيةٍ فيه بريدٌ من السماءِ إلى قلبِكَ أنتَ، مكتوبٌ عليه اسمُكَ وحدَكَ، لا يُشاركُكَ فيه أحدٌ. فما مِن حُزنٍ نَزلَ بكَ إلّا وفي القرآنِ ما يُطَمْئِنُه، وما مِن خوفٍ أطبقَ على صدرِكَ إلّا وفي القرآنِ ما يَفُكُّ عنه أَسْرَهُ، وما مِن سؤالٍ حَيَّرَكَ إلّا وفي القرآنِ جوابُهُ، لو أنَّكَ أَحسنتَ الإصغاءَ.

هذه رسائلُ كتبتُها على مَهَلٍ، لم أُرِدْ بها تفسيرًا للعلماءِ، ولا تحقيقًا للمُحقِّقينَ؛ فتلك أبوابٌ لها أهلُها الرَّاسخونَ. إنّما أردتُها كلمةً تُقالُ في أُذُنِ القلبِ حين يَتعبُ، وكفًّا تُوضَعُ على الكتفِ حين تَثقُلُ الأيامُ، أخذتُ في كلِّ رسالةٍ آيةً من كتابِ اللهِ، ثمَّ جلستُ إليها كما يَجلسُ العطشانُ إلى غديرٍ، أَنظرُ كيف تُخاطِبُ جُرحَ الإنسانِ، وكيف تُداوي ما لا يُداويهِ طبيبٌ ولا دواءٌ.

وقد استَضَأتُ في مسلكِي هذا بنُورِ رجالٍ سبقونا إلى مُجالَسةِ القرآنِ فإنْ ظفِرتَ في هذه الأوراقِ بشيءٍ من ذلك النورِ فمِن فضلِ اللهِ، وإنْ رأيتَ فيها تقصيرًا فمِنّي ومِن ضعفي، واللهُ يَغفِرُ ويَستُرُ.

اقرأْ هذه الرسائلَ كما تُقرأُ الرسائلُ: على مَهَلٍ، ورسالةً في كلِّ ليلةٍ، لا تُزاحِمْها الرسائلُ. اقرأْها وأنتَ منكسِرٌ، فإنَّ القلبَ المكسورَ أقربُ إلى اللهِ، وأَوعى للكلامِ الطيِّبِ. ولا تَجعلْ حظَّكَ منها أن تُعجَبَ بجَمالِ اللفظِ، فما كتبتُها لتُعجَبَ، وإنما لتَعودَ إلى كتابِ اللهِ، فتفتحَهُ أنتَ بيديكَ، وتقرأَهُ أنتَ بعينيكَ، وتَسمعَ الرسالةَ من مُرسِلِها لا من ساعِي

البريدِ. فإنَّما أنا في هذا الكتابِ ساعي بريدٍ، أحملُ إليكَ ما ليس منّي، وأدُلُّكَ على البابِ ثمَّ أنصرفُ.

فيا أيُّها القلبُ الظمآنُ، هذا مَعينٌ لا يَنضُبُ، فارْوِ منه، ويا أيُّها الخائفُ، هذا أمانٌ، فاطمئِنَّ. ويا أيُّها التائهُ، هذا نورٌ، فاتَّبِعْهُ تَهْتَدِ ...

وإلى اللهِ أرفعُ يدَيَّ أن يجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهِهِ، نافعًا لعبادِهِ، ثقلًا في ميزانِ مَن كَتبَ ومَن قرأَ ومَن دَعا. وما توفيقي إلا باللهِ، عليه توكَّلتُ وإليه أُنيبُ.

(الرِّسَالَةُ الأُولى)

رِسَالَةٌ إِلَى قَلْبٍ لَا يَهْدَأُ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

[الرعد: 28]

يا صاحبِي، إنَّ في صدرِكَ قلبًا لا يَكادُ يَهدأُ. يَركُضُ خلفَ كلِّ شيءٍ ظانًّا أنَّه هناك، ثمَّ يَبلُغُه فلا يجدُ فيه ما ظنَّ. جَرَّبتَ المالَ فما سكَنْتَ، وجرَّبتَ الجاهَ فما اطمأننتَ، وجرَّبتَ أن تُحبَّ وأن تُحَبَّ فوجدتَ في القلبِ زاويةً لا يَملؤها بشرٌ. تلك الزاويةُ، يا صاحبي، لم تُخلَقْ لغيرِ اللهِ، ومَن أرادَ أن يَملأها بسواهُ فكأنّما أرادَ أن يَملأَ البحرَ بكفَّينِ.

قالَ ربُّكَ ولم يَقُلْها احتمالًا يَقبلُ الشكَّ، بل جزمًا يَقطعُ كلَّ رجاءٍ في غيرِه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. لاحِظِ الحصرَ، يا صاحبي؛ فما قال: تَطمئنُّ القلوبُ بالمالِ، ولا بالصِّحبةِ، ولا ببلوغِ الأمانيِّ، بل حَصَرَ الطمأنينةَ في بابٍ واحدٍ، وأَغلقَ ما سواهُ. كأنَّه يقولُ لكَ: قد أَعياكَ الطوافُ حولَ الأبوابِ المُغلَقةِ، فتعالَ إلى البابِ الَّذي لا يُرَدُّ عنه طارقٌ.

والذِّكرُ ليس حركةَ لسانٍ فحسبُ، وإنْ كان اللسانُ بابَه، إنّما هو أن يَعرِفَ القلبُ أنَّ فوقَه ربًّا يُدبِّرُ، ودونَه أرضًا لا تَملِكُ لنفسِها ضرًّا ولا نفعًا. حين يَعلمُ القلبُ ذلك حقَّ

العلمِ، يَضعُ حِملَهُ عند بابِ مَن يَقدِرُ على حَملِه، ويَنامُ. أرأيتَ الطفلَ كيف يَنامُ في حِجرِ أُمِّه ملءَ جفنيهِ، لا يَشغلُه رزقُ الغدِ ولا هَمُّ الطريقِ؟ لأنّه يعلمُ — بفطرتِه لا بعقلِه — أنَّ ثَمَّةَ مَن يَحملُه. فكيف بمَن عَلِمَ أنَّ الَّذي يَحملُه هو اللهُ؟

إنَّ القلوبَ التي لا تَذكُرُ اللهَ قلوبٌ مَترُوعةُ السكينةِ، مُوكولةٌ إلى نفسِها، وأيُّ عذابٍ أشدُّ من أن يُوكَلَ العبدُ إلى نفسِه الضعيفةِ العاجزةِ؟ ومِن رحمةِ اللهِ بكَ أنَّه ما جعلَ بابَ السكينةِ بعيدًا، ولا مشروطًا بمالٍ تَجمعُه أو سفرٍ تَقطعُه؛ بل جعلَه على طرفِ لسانِكَ، وفي خَفَقةِ قلبِكَ، تَبلُغُه وأنتَ في فراشِكَ، وأنتَ في زحامِ طريقِكَ، وأنتَ في وحدةِ ليلِكَ.

فيا أيُّها المُتعَبُ، جَرِّبْ ليلةً واحدةً أن تُغلِقَ بابَكَ على نفسِكَ، وتَذكُرَ اللهَ حتى يَبتلَّ لسانُكَ، وتَشكوَ إليه ما لا تَشكوهُ إلى أحدٍ، فإنَّ العبادَ يَملُّونَ شكواكَ وهو لا يَملُّ، ويَعجَزونَ عن حَملِكَ وهو القويُّ. عندئذٍ ستَعرِفُ أنَّ الطمأنينةَ لم تكنْ يومًا بعيدةً؛ كنتَ أنتَ الذي ذهبتَ بعيدًا، فعُدْ.

(الرِّسَالَةُ الثانية)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ يَخَافُ الغَدَ

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

[الذاريات: 22]

يا مَن يَبيتُ ليلَه يَحسِبُ الأيامَ ويُعِدُّ للغدِ حسابًا لم يَأتِ بعدُ: أراكَ تُثقِلُ ظهرَكَ بأحمالِ سنينَ قد لا تُدرِكُها، وتَبكي على رزقٍ لم يَفُتْكَ لأنّه أصلًا لم يَحِنْ. رفعَ اللهُ رزقَكَ إلى السماءِ ليُريحَ قلبَكَ، لا ليُتعِبَه؛ فلو كان رزقُكَ في الأرضِ لَخِفتَ عليه من اللصوصِ والحوادثِ وتقلُّبِ الأحوالِ، ولكنّه في السماءِ، في خزائنِ مَن لا تَنفدُ خزائنُه، ولا يَغفُلُ عن عبدٍ طَرْفةَ عينٍ.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ تأمَّلْ أينَ وضعَه اللهُ. لم يَقُلْ: وفي كدِّكم رزقُكم، ولا في وظائفِكم، ولا في حساباتِكم؛ وإنْ كان السعيُ سُنّةً أمَرَنا بها، إنّما نَسبَ الرزقَ إلى السماءِ لِيَقطعَ عنكَ وهمَ أنَّ الأسبابَ هي التي تَرزُقُكَ. الأسبابُ سُتُرٌ أرخاها اللهُ على قدرتِه لتَطمئنَّ إليها العقولُ الضعيفةُ، وإلّا فالرازقُ واحدٌ من فوقِ سبعِ سماواتٍ.

أرأيتَ الطيرَ يَغدو خِماصًا ويَروحُ بِطانًا؟ يَخرُجُ من عُشِّه أولَ النهارِ وليس في حَوصلتِه حبّةٌ، ولا يَملِكُ مخزنًا ولا يَحسِبُ حسابَ الغدِ، فيُرجِعُه اللهُ آخرَ النهارِ وقد امتلأَ. فإنْ كان اللهُ لا يَنسى طائرًا لا يَعقِلُ ولا يُصلّي ولا يَذكُرُ، أفيَنساكَ أنتَ وأنتَ تَسجُدُ له وتَدعوهُ وتَرجوهُ؟ حاشا لكَرمِه أن يَفعلَ.

إنَّ الخوفَ على الرزقِ سوءُ ظنٍّ بالرزّاقِ، وإنِ اتَّشحَ بثوبِ الحكمةِ والتدبيرِ، وكم من عبدٍ قتلَ سعادةَ يومِه حُزنًا على رزقِ غدٍ، فجاءَ الغدُ ومعه رزقُه، ومَضى اليومُ ولم يَعُدْ. أفلا تَستحي أن تَشغلَ نفسَكَ برزقٍ قد تكفَّلَ به الغنيُّ الكريمُ، وتَنسى العملَ الذي وُكِلَ إليكَ وحدَكَ، وهو طاعتُه وشكرُه؟

قِفْ يا صاحبي، وقلْ لقلبِكَ الخائفِ: إنَّ الذي خلقَ الفمَ تَكفَّلَ بالطعامِ، والذي شقَّ الأمعاءَ لم يَنسَ أن يَملأَها، ما نَقصَ رزقُ عبدٍ لأنّه توكَّلَ، ولا زادَ رزقُ آخرَ لأنّه تكالَبَ. القِسْمةُ قُسِمتْ، والأقلامُ رُفِعتْ، والصُّحُفُ جَفَّتْ، فاطمئنَّ: لن تموتَ نفسٌ حتى تَستكمِلَ رزقَها وأجلَها. فأَحسِنِ الطلبَ، وأَجمِلْ في السعيِ، ودَعِ الباقي لمن في السماءِ رزقُكَ عندَه.

(الرِّسَالَةُ الثالثة)

رِسَالَةٌ إِلَى صَابِرٍ كَادَ يَنْكَسِرُ

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

[النحل: 127]

يا مَن طالَ عليه البلاءُ حتى ظنَّ أنَّ الصبرَ قد نَفِدَ من قلبه: أُبشِّرُكَ بأنَّ الآيةَ التي أَمرتْكَ بالصبرِ هي نفسُها التي كَفَلتْ لكَ العونَ عليه ﴿وَاصْبِرْ﴾ أمرٌ قد تَعجزُ عنه، ثمَّ يأتيكَ الجوابُ في نَفسِه: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ أي لا تَظُنَّ أنَّكَ مطلوبٌ منكَ أن تَصبرَ بحَولِكَ وقوَّتِكَ، فالصبرُ نفسُه عطاءٌ منه، منحةٌ يَمنَحُها لمن سألَه، فاطلُبْه من مُعطيه.

كم أَرهقَ الناسَ ظنُّهم أنَّ الصبرَ حِملٌ يَحملونَه وحدَهم! يَعُضُّونَ على الجُرحِ حتى تكادُ أضراسُهم تَنكسِرُ، ويَظُنُّونَ أنَّ الجَلَدَ من عندِهم. ولو عَلِموا أنَّ الصبرَ إنّما يُصَبُّ في القلبِ صبًّا من السماءِ، كما يُصَبُّ الماءُ في الإناءِ، لَما أَتعبوا أنفسَهم، ولَرفعوا أكفَّهم قائلينَ: يا ربِّ، لا طاقةَ لي، فأَعِنّي؛ فيترلُ عليهم من الصبرِ ما يُطيقونَ به ما لا يُطاقُ.

إنَّ الصبرَ الحقَّ ليس بلادةَ الحسِّ، ولا موتَ القلبِ عن الألمِ. لا، يا صاحبي؛ فأنبياءُ اللهِ صبروا وهم يَتألَّمونَ، وبَكوا وهم راضونَ. يعقوبُ — عليه السلامُ — ابيضَّتْ عيناهُ من

الحُزنِ، ومع ذلك قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. فالصبرُ الجميلُ صبرٌ لا شَكوى فيه إلى الخَلقِ، وإنْ كان فيه دمعٌ إلى الخالقِ. أن تَبكيَ بين يدَيِ اللهِ ليس نقصًا في الصبرِ؛ إنّما النقصُ أن تَبُثَّ حُزنَكَ إلى مَن لا يَملِكُ لكَ شيئًا، فتَجمعَ بين ألمِ المصيبةِ وذُلِّ الشكوى.

واعلمْ أنَّ اللهَ ما ابتلاكَ ليُهلِكَكَ، بل لِيُنقّيَكَ. النارُ التي تَظُنُّها تُحرِقُكَ هي نفسُها التي تُصفّي الذهبَ من خَبَثِه. ولو نظرتَ إلى بلائِكَ بعينِ مَن يَعلمُ الغيبَ لَرأيتَه رحمةً في ثوبِ شدَّةٍ، ولَرأيتَ أنَّ اللهَ يَنحتُ منكَ إنسانًا لم يكنْ لِيُوجَدَ لولا هذه المطرقةُ. فما كلُّ ما يُوجِعُ يُؤذي، وكم من ضربةِ إزميلٍ صنعتْ تمثالًا خالدًا.

فاصبِرْ، يا صاحبي، ولا تَستعجِلِ الفجرَ؛ فإنَّ الليلَ لا يَشتدُّ سوادُه إلا في ساعتِه الأخيرةِ، ثمَّ يَنبثِقُ الصبحُ. واطلُبِ الصبرَ من اللهِ كما تَطلُبُ الرزقَ منه؛ فما أَعطى اللهُ عبدًا عطاءً خيرًا وأَوسعَ من الصبرِ. وإذا أَعياكَ الحملُ فلا تَقُلْ: قد نَفِدَ صبري؛ بل قُلْ: يا ربَّ الصبرِ، أَمْدِدْنِي بصبرٍ من عندِكَ، فإنَّ خزائنَكَ لا تَنفدُ.

(الرِّسَالَةُ الرابعة)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الرَّجَاءِ

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾

[الزمر: 53]

يا مَن أَثقلتْه ذنوبُه حتى ظنَّ أنَّ بابَ اللهِ قد أُوصِدَ في وجهِه: اسمعْ كيف ناداكَ ربُّكَ في هذه الآيةِ. لم يَقُلْ: قُلْ يا أيُّها المُذنبونَ، ولا يا أيُّها العُصاةُ؛ بل قال: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾. أضافكَ إليه –وأنتَ المُسرِفُ العاصي– إضافةَ تكريمٍ وتحبُّبٍ، كأنَّ الأبَ الرحيمَ يُنادي ولدَه الشاردَ: تعالَ يا بُنَيَّ، مهما فعلتَ فأنتَ ابني. أيُّ قلبٍ لا يَذوبُ لهذا النداءِ؟

﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾؛ تأمَّلْ رحمةَ التعبيرِ. لم يَقُلْ: أَسرفوا عليَّ، ولا: أساؤوا إليَّ؛ فإنَّ ذنوبَكَ لا تَضُرُّ اللهَ شيئًا، ولا تَنقُصُ من مُلكِه ذرَّةً. إنّما أنتَ الذي أَسرفتَ على نفسِكَ، أنتَ الذي ظَلمتَها، أنتَ الذي حَرمتَها. فحين تَعودُ إليه فأنتَ إنّما تُنقِذُ نفسَكَ من نفسِكَ، وتَرحمُها ممّا جَنَتْه عليها.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ لاحِظْ أنَّ القنوطَ هو الذي حُرِّمَ، لا الذنبُ فقط. لأنَّ الذنبَ جُرحٌ، والقنوطَ موتٌ. فمَن أَذنبَ ثمَّ رَجا فقد جُرِحَ ثمَّ عادَ إلى الطبيبِ، ومَن أَذنبَ

ثمَّ قَنَطَ فقد جُرِحَ ثمَّ رَفضَ الدواءَ حتى ماتَ. والشيطانُ يَعرِفُ هذا؛ فهو يُزيِّنُ لكَ الذنبَ أولًا حتى تَقعَ، فإذا وقعتَ قَلَبَ لكَ الوجهَ وقال: لقد هلكتَ، لن يَغفِرَ اللهُ لكَ؛ ليَحبِسَكَ بين ذنبٍ وقنوطٍ، ويَمنعَكَ من البابِ الوحيدِ الذي تَنجو منه.

واللهِ لو أنَّ ذنوبَكَ بلغتْ عَنانَ السماءِ، ثمَّ رجعتَ إلى اللهِ صادقًا، لَغَفرها ولم يُبالِ. أرأيتَ رحمةً تُقاسُ بالبحارِ فتَغلِبُها، وبالجبالِ فتَذوبُها؟ رحمةُ اللهِ أوسعُ من أن يَملأها ذنبُ عبدٍ، بل أوسعُ من أن تَملأها ذنوبُ الخَلقِ أجمعينَ لو اجتمعوا. فلا تَقِسْ عفوَ الكريمِ على ضِيقِ صدرِكَ، ولا تَحكُمْ على سِعةِ رحمتِه بضِيقِ رجائِكَ.

فارجِعْ، يا صاحبي، ولو تَعثَّرتَ في العودةِ ألفَ مرَّةٍ. فإنَّ اللهَ يَفرحُ بتوبةِ عبدِه فرحًا لا يُقاسُ بفرحِ الواجدِ راحلتَه بعد أن أَيِسَ منها في الفلاةِ. تُبْ إليه، فإنْ عُدتَ إلى الذنبِ فتُبْ، ثمَّ عُدْ فتُبْ؛ ولا تَجعلْ يأسَكَ من نفسِكَ يأسًا من ربِّكَ، فبينهما ما بين الأرضِ والسماءِ. إنَّ نفسَكَ قد تَخذُلُكَ، أمّا هو فلا يَخذُلُ مَن قَرَعَ بابَه.

(الرِّسَالَةُ الخامسة)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ دُعَاءَهُ لَا يُسْمَعُ

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

[غافر: 60]

يا مَن رَفعَ يديهِ مِرارًا ثمَّ أَنزلَهما ظانًّا أنَّ السماءَ صمَّاءُ: ما أَبعدَ ظنَّكَ عن الحقِّ! إنَّ الذي أَمرَكَ أن تَدعوَه هو نفسُه الذي وعدَكَ أن يَستجيبَ، وهو لا يُخلِفُ الميعادَ. تأمَّلْ أوَّلَ الآيةِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾؛ فما هو أمرٌ من ملكٍ إلى رعيَّته فحسبُ، بل نداءٌ من ربٍّ إلى عبيدِه، فيه من الحُنُوِّ ما يُذيبُ الجليدَ. كأنَّه يقولُ: أنا هنا، فادعُني، لا تَذهبْ إلى غيري وتَترُكْني.

أرأيتَ عَجَبًا كهذا؟ إنَّ ملوكَ الأرضِ يَحتَجِبونَ عن السائلينَ، ويَجعلونَ بينهم وبينَ الناسِ حُجّابًا وأبوابًا، ويَملُّونَ كثرةَ الطالبينَ. أمّا مَلِكُ المُلوكِ فيَغضَبُ إن لم تَسألْه، ويُحِبُّ من عبدِه أن يُلِحَّ عليه، ويَفتحُ بابَه في جوفِ الليلِ حين تُغلَقُ كلُّ الأبوابِ، ويقولُ: هل من داعٍ فأُجيبَه؟ هل من سائلٍ فأُعطِيَه؟ هل من مُستغفِرٍ فأَغفِرَ له؟ فأيُّ كَرمٍ بعدَ هذا الكرمِ؟

ولعلَّكَ تقولُ: قد دَعوتُ فما رأيتُ الإجابةَ. فاعلمْ، يا صاحبي، أنَّ الإجابةَ ليست دائمًا أن تأخُذَ عينَ ما طلبتَ في حينِ ما طلبتَ. فربَّما سألتَ شيئًا فمنعَكَ إيّاهُ لأنّه رأى فيه

هلاكَكَ وأنتَ لا ترى، فكان منعُه عينَ العطاءِ. وربَّما أخَّرَ عنكَ ما سألتَ لأنَّ الوقتَ لم يَحِنْ، والثمرةُ لا تُقطَفُ قبلَ نُضجِها. وربَّما ادَّخرَ لكَ دعاءَكَ ليومٍ أنتَ أحوجُ فيه إلى كلِّ حسنةٍ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ. فأيُّ هذه الثلاثِ ظَفِرتَ بها فأنتَ رابحٌ، وما رُدَّ داعٍ صادقٌ خائبًا.

إنَّ الدعاءَ في ذاتِه عبادةٌ، بل هو مُخُّ العبادةِ. فأنتَ حين تَدعو تُقِرُّ بفقرِكَ وغِناهُ، وبعجزِكَ وقدرتِه، وبذُلِّكَ وعزَّتِه؛ وهذا وحدَه غايةُ ما يُرادُ منكَ. فلا تَنظُرْ إلى الدعاءِ كأنّه صفقةٌ: أَدعو فآخُذُ، فإن لم آخُذْ فقد خَسِرتُ. بل انظُرْ إليه كأنّه لقاءٌ بينكَ وبينَ مَن تُحِبُّ؛ يكفيكَ أنّه سمِعَكَ، ويكفيكَ أنّه أَذِنَ لكَ أن تَقِفَ ببابِه.

فارفعْ يديكَ، يا صاحبي، ولا تُبالِ بطولِ الطريقِ. أَلِحَّ على اللهِ ولا تَستحسِرْ، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدعاءِ. وإذا استَبطأتَ الإجابةَ فلا تَقُلْ: دَعوتُ فلم يُستَجَبْ لي، فذلك بابٌ من أبوابِ الحِرمانِ يُغلِقُه العبدُ على نفسِه. بل قُلْ: لَبَّيكَ يا ربِّ، أَدعوكَ وأنا موقنٌ بالإجابةِ، فإنْ أَبطأتَ عنّي فلحكمةٍ تَعلمُها ولا أَعلمُها، وحسبي أنَّكَ سمِعتَني.

(الرِّسَالَةُ السادسة)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ ضَاقَتْ بِهِ الأَرْضُ

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

[الشرح: 5–6]

يا مَن أطبقتْ عليه الشدائدُ حتى كادَ يَختنِقُ: تأمَّلْ كيف يُعزّيكَ ربُّكَ. لم يَقُلْ: فإنَّ بعدَ العُسرِ يُسرًا؛ بل قال: ﴿مَعَ الْعُسْرِ﴾. والفرقُ بين (بعدَ) و(معَ) فرقٌ يُحيي القلوبَ؛ فلو قال (بعدَ) لَظننتَ أنَّ اليُسرَ لا يأتي إلا حين يَرحلُ العُسرُ تمامًا، فتَبقى مُعلَّقًا تَنتظِرُ. أمّا (معَ) فتقولُ لكَ: إنَّ اليُسرَ مُلازمٌ للعُسرِ، مُصاحبٌ له، كامنٌ في قلبِه، وإنْ لم تَرَه بعدُ. فما دُمتَ في عُسرٍ فاعلمْ أنَّ يُسرَه معه، يَنتظِرُ لحظةَ انبلاجِه.

ثمَّ انظرْ إلى تكرارِ الآيةِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. أعادَها اللهُ مرَّتينِ لا لغوًا — تعالى عن ذلك — بل لِيُثبِّتَ في قلبِكَ ما تكادُ الشدَّةُ تَقلعُه. وقد فَقِهَ السلفُ من هذا التكرارِ سِرًّا لطيفًا: أنَّ العُسرَ جاء مُعرَّفًا بأل في الموضعينِ، فهو عُسرٌ واحدٌ؛ واليُسرَ جاء مُنكَّرًا فيهما، فهما يُسرانِ. فلن يَغلبَ عُسرٌ واحدٌ يُسرَينِ اثنينِ. فطِبْ نفسًا، فإنَّ ضِيقكَ محصورٌ محدودٌ، وفرَجَ اللهِ واسعٌ لا يُحَدُّ.

واعلمْ أنَّ أشدَّ ما يكونُ الكربُ حين يَقتربُ الفرَجُ، كما أنَّ أحلَكَ الظلامِ يَسبِقُ الفجرَ بلحظةٍ. فلا تَحكُمْ على ليلِكَ أنّه دائمٌ لأنّه اشتدَّ سوادُه؛ فربَّما كان اشتدادُه بشارةً بقُربِ الصبحِ، وكم من عبدٍ ظنَّ أنَّ البابَ سُدَّ في وجهِه، فإذا هو ينفتحُ من حيثُ لا يَحتسِبُ، ويأتيه الفرَجُ من الجهةِ التي كان يَظُنُّها أَبعدَ الجهاتِ.

إنَّ الضِّيقَ لا يَدومُ، يا صاحبي، لأنَّ الدنيا كلَّها لا تَدومُ. وما جُعِلتِ الشدائدُ لتَقتُلَكَ، بل لتُعلِّمَكَ ما لا تُعلِّمُكَ الرخاءُ. في العُسرِ تَعرِفُ ربَّكَ حقَّ المعرفةِ، وتَعرِفُ نفسَكَ، وتَعرِفُ الناسَ؛ فالشدَّةُ مرآةٌ صادقةٌ تُريكَ ما كان الرخاءُ يُخفيه. فلا تَستعجِلْ زوالَها قبلَ أن تأخُذَ منها دَرسَها، فربَّما زالتْ وتركتْكَ كما كنتَ، فضاعَ عليكَ عُسرُها ولم تَربحْ يُسرَها.

فاصبِرْ لحظةً بعدَ لحظةٍ، ولا تَحمِلْ هَمَّ العُمرِ كلِّه دُفعةً واحدةً. عِشْ يومَكَ فقط، فإنَّ اللهَ قسَّمَ الأيامَ لتُعاشَ يومًا يومًا، لا لتُحمَلَ جملةً. وقلْ لقلبِكَ الضائقِ: هوِّنْ عليكَ، فإنَّ الذي أَنزلَ البلاءَ يَملِكُ رفعَه، والذي ضَيَّقَ يَملِكُ أن يُوسِّعَ، وما ضاقتْ حِيلةٌ إلا وعندَ اللهِ مَخرجُها. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

(الرِّسَالَةُ السابعة)

رِسَالَةٌ إِلَى قَلْبٍ يَظُنُّ نَفْسَهُ وَحِيدًا

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

[ق: 16]

يا مَن يَجلِسُ في زحامِ الناسِ فيَشعُرُ بوحدةٍ لا يَفهمُها أحدٌ: ثَمَّةَ قُربٌ لم تَلتفِتْ إليه، أَقربُ إليكَ من كلِّ قريبٍ. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ أَقربُ إليكَ من العِرقِ الذي في عُنقِكَ، من نَفَسِكَ الذي بين شفتيكَ، من خاطرِكَ الذي لم يَخرُجْ بعدُ من قلبِكَ. يَعلمُ ما تُخفي قبلَ أن تُبديَه، ويَسمعُ حديثَ نفسكَ قبلَ أن يَبلُغَ لسانَكَ. فكيف تكونُ وحيدًا ومعكَ مَن هذا قُربُه؟

إنَّ وَحشةَ الإنسانِ الحقيقيَّةَ ليست في غيابِ الخَلقِ، بل في غفلتِه عن الخالقِ. فكم من إنسانٍ تَحُفُّه الجموعُ وقلبُه في صحراءَ قاحلةٍ! وكم من عبدٍ خلا بنفسِه في غرفةٍ ضيِّقةٍ، فإذا هي أوسعُ من الدنيا، لأنَّ اللهَ ثالثُه! ما الوحدةُ إلا أن تَشعُرَ أنَّ لا أحدَ يَراكَ ولا يَعنيه أمرُكَ؛ فإذا أَيقنتَ أنَّ اللهَ يراكَ ويَعنيه كلُّ شأنِكَ، ذابتِ الوحدةُ كما يَذوبُ الملحُ في الماءِ.

أرأيتَ حينما يَشتدُّ بكَ الكربُ، وتَبحثُ عمَّن تُحدِّثُه فلا تَجدُ؟ إنَّ اللهَ يُريدُ منكَ في تلك اللحظةِ بالذاتِ أن تلتفتَ إليه، أَخلى لكَ الطريقَ من كلِّ مُعينٍ سواهُ لتَعرِفَ أنّه وحدَه المُعينُ. فتلك الوحدةُ التي تَشكوها ليست عقوبةً، بل دعوةٌ؛ يَدعوكَ إليه حين يَصرِفُ عنكَ كلَّ ما كان يُلهيكَ عنه، فلا تَملأِ الفراغَ بأيِّ شيءٍ، بل امْلأْه به.

ومن عَجيبِ لُطفِه أنّه قريبٌ منكَ وأنتَ في الطاعةِ، وقريبٌ منكَ وأنتَ في المعصيةِ يَنتظِرُ توبتَكَ؛ قريبٌ منكَ وأنتَ تَذكُرُه، وقريبٌ منكَ وأنتَ غافلٌ عنه. لا يُبعِدُه عنكَ ذنبُكَ، ولا يَحجُبُه عنكَ إعراضُكَ؛ فهو الأقربُ أبدًا، وإنّما أنتَ الذي تَبعُدُ ثمَّ تَظُنُّه بَعُدَ. عُدْ إليه بقلبِكَ تَجدْه أقربَ ممّا تَتوهَّمُ، فما احتاجَ العائدُ إليه إلى سفرٍ، إنّما إلى التفاتةِ قلبٍ.

فيا أيُّها الوحيدُ الذي ليس بوحيدٍ، ناجِ ربَّكَ في وحدتِكَ كما يُناجي الحبيبُ حبيبَه. قُلْ له ما لا تَقولُه لأحدٍ، فإنّه يُحِبُّ أن تُحدِّثَه، ويَفرحُ بأنينِ الشاكينَ إليه. وإذا أَويتَ إلى فراشِكَ آخرَ الليلِ، وأَطبقَ عليكَ الصمتُ، فاعلمْ أنَّكَ لستَ وحدَكَ؛ فالذي خلقَ الليلَ ساهرٌ لا تَأخُذُه سِنةٌ ولا نومٌ، والذي أَنطقَ الكائناتِ يُنصِتُ الآنَ إليكَ أنتَ، فتكلَّمْ.

(الرِّسَالَةُ الثامنة)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ فَقَدَ حَبِيبًا

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

[البقرة: 156]

يا مَن غادرَه مَن يُحِبُّ، فبقيَ في البيتِ مكانٌ فارغٌ لا يَملؤه أحدٌ: أَعلمُ أنَّ الكلماتِ تَعجزُ أمامَ فَقدِكَ، وأنَّ أصدقَ ما يُقالُ لكَ قد قالَه اللهُ. علَّمكَ ربُّكَ عند المصيبةِ كلمتينِ تَحملانِ الدنيا كلَّها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. في أوَّلِها إقرارٌ بالمِلكِ: إنّا لله؛ أي إنَّ الذي أخذَه منكَ هو الذي أَعطاكَه، وإنَّ الوديعةَ رَجعتْ إلى صاحبِها. وفي آخرِها إقرارٌ بالمصيرِ: وإنّا إليه راجعونَ؛ أي إنَّ الفراقَ مؤقَّتٌ، وإنَّ اللقاءَ آتٍ.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ لم يَقُلِ: الميِّتُ لله، بل قال: إنّا لله؛ فأدخلَ نفسَكَ أنتَ في المِلكِ، لأنَّكَ لستَ مالكًا لمن أحببتَ حتى تَحزَنَ أنّه أُخِذَ منكَ؛ بل أنتَ وهو معًا مِلكٌ لله، أَودعَ بعضَكم عند بعضٍ حينًا، ثمَّ استردَّ وديعتَه في الأجلِ الذي كتبَه. أفيَغضَبُ المُستودَعُ إذا استردَّ صاحبُ الأمانةِ أمانتَه؟ وهل كان لكَ مِن مَن أحببتَ إلا أنّه أمانةٌ عندكَ إلى حينٍ؟

إنَّ الحُزنَ على الفَقدِ ليس نقصًا في الإيمانِ، فقد دمعتْ عينُ النبيِّ ﷺ على ولدِه إبراهيمَ، وقال: «إنَّ العينَ تَدمَعُ، والقلبَ يَحزَنُ، ولا نقولُ إلا ما يُرضي ربَّنا». فالدمعُ رحمةٌ وضعَها اللهُ في القلبِ، لا تُنكِرْه ولا تَستحِ منه. إنّما المنهيُّ عنه أن يَتحوَّلَ الحُزنُ إلى سُخطٍ على القضاءِ، وأن يَجُرَّكَ الألمُ إلى كلمةٍ تُغضِبُ ربَّكَ. فابْكِ ما شئتَ، ولكنْ قلْ ما يُرضي اللهَ.

وتذكَّرْ أنَّ مَن فَقدتَه لم يَضِعْ، إنّما سبقَكَ إلى دارٍ أنتَ لاحقٌ بها لا محالةَ. تصوَّرْ أنَّكَ ودَّعتَه على بابِ سفرٍ، وأنَّ الطريقَ الذي سلكَه ستَسلُكُه أنتَ، وأنَّ اللقاءَ في نهايةِ الطريقِ. فالموتُ ليس عدمًا، بل انتقالٌ من دارٍ إلى دارٍ، ومَن ماتَ على الإيمانِ فقد سَبقَ إلى الراحةِ، وتركَكَ في دارِ الامتحانِ لتَلحقَه بعملٍ صالحٍ. فأَتبِعْه بالدعاءِ والصدقةِ، فتلك هدايا تَصِلُه في قبرِه وأنتَ في بيتِكَ.

فيا أيُّها الثَّكلانُ، ارفَعْ يديكَ إلى مَن بيدِه مفاتيحُ القلوبِ، وقلْ: اللهمَّ آجِرْني في مصيبتي، وأَخلِفْ لي خيرًا منها. فقد وعدَ اللهُ الصابرينَ بأنّه يُصلّي عليهم هو وملائكتُه، وأيُّ عزاءٍ يَبلُغُ أن يُصلّيَ اللهُ عليكَ؟ فاصبرْ، فإنَّ بينَكَ وبينَ لقاءِ مَن أَحببتَ صبرًا قصيرًا على دنيا قصيرةٍ، ثمَّ لقاءً لا فِراقَ بعدَه، في دارٍ لا حُزنَ فيها ولا موتَ.

(الرِّسَالَةُ التاسعة)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَنْهَكَتْهُ النِّعَمُ فَنَسِيَ المُنْعِمَ

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾

[النحل: 18]

يا مَن اعتادَ النِّعمةَ حتى ما عادَ يَراها: قِفْ لحظةً وأَحصِ إنِ استطعتَ. عَدَّ ربُّكَ في هذه الآيةِ عجزَكَ عن العدِّ نفسه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾. ولاحِظْ أنّه قال: (نِعمةَ) بالإفرادِ لا (نِعَمَ) بالجمعِ؛ كأنَّ نِعمةً واحدةً منها إذا أردتَ أن تَعُدَّ تفاصيلَها أَعجزتْكَ. نِعمةُ البصرِ وحدَها: كم فيها من دقائقَ لو ذهبَ منها شيءٌ لأَنفقتَ عُمرَكَ ومالَكَ لتَستردَّه؟ فكيف بنِعَمٍ لا يَحصُرُها عَدٌّ؟

إنَّ أعظمَ حُجُبِ القلبِ عن الشكرِ هو الاعتيادُ. تَعتادُ العافيةَ فتَنساها حتى يُوقِظَكَ المرضُ، وتَعتادُ الأمنَ فلا تُقدِّرُه حتى يَزعزِعَه الخوفُ، وتَعتادُ وجوهَ مَن تُحِبُّ فلا تَراها حتى يَغيِّبَها الفراقُ. فالنِّعمةُ الحاضرةُ خَفيَّةٌ، لا يَكشِفُها إلا فقدُها؛ وما أَحمقَ مَن لا يَعرِفُ قيمةَ ما بينَ يديهِ إلا حينَ يَخرُجُ من يديه!

جَرِّبْ ليلةً أن تَستعرِضَ نِعَمَ يومِكَ الواحدِ: نَفَسٌ يَدخُلُ ويَخرُجُ بلا عناءٍ، أنتَ عنه غافلٌ؛ وقلبٌ يَخفِقُ منذُ وُلِدتَ لم يَستأذِنْكَ ولم يَتوقَّفْ؛ وطعامٌ وجدتَه، وماءٌ شربتَه، وسقفٌ آواكَ، وثوبٌ سترَكَ، وعقلٌ يُفكِّرُ، ولسانٌ يَنطِقُ. لو أنَّ عبدًا قضى عُمرَه ساجدًا شاكرًا على نِعمةٍ واحدةٍ من هذه لَما وَفَّاها حقَّها. فأينَ شكرُكَ من عطاءِ ربِّكَ؟

واعلمْ أنَّ الشكرَ ليس كلمةً تُقالُ باللسانِ فحسبُ، بل هو أن تَصرِفَ النِّعمةَ فيما خُلِقتْ له. شكرُ العينِ أن تَنظُرَ بها إلى ما يُحِبُّ اللهُ، وشكرُ اللسانِ أن تَذكُرَه به، وشكرُ الجوارحِ أن تُطيعَه بها. فمَن أخذَ النِّعمةَ ثمَّ عصى بها مانِحَها فقد قابلَ الإحسانَ بالإساءةِ، وذلك أَقبحُ ما يكونُ من الجُحودِ. واللهُ يَزيدُ الشاكرينَ ويَبتلي الجاحدينَ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

فيا أيُّها الغافلُ عن النِّعمِ، افتَحْ عينيكَ على ما حولَكَ، تَرَ يدَ اللهِ ممدودةً عليكَ في كلِّ لحظةٍ. قلْ في يومِكَ مِرارًا: الحمدُ للهِ؛ لا عادةً على اللسانِ، بل شعورًا يَملأُ القلبَ. فإنَّ الحمدَ يَستجلِبُ المزيدَ، ويَحفظُ الموجودَ، ويَملأُ القلبَ رِضًا، ويَقطعُ عنكَ داءَ التطلُّعِ إلى

ما في أيدي الناسِ. ومَن نظرَ إلى ما أُعطيَ لا إلى ما مُنِعَ، عاشَ غنيًّا وإنْ كان بينَ الناسِ فقيرًا.

(الرِّسَالَةُ العاشرة

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ يَخَافُ مَا لَمْ يَقَعْ

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾

[طه: 46]

يا مَن يَستزِفُه الخوفُ من غدٍ لم يأتِ، ومن احتمالاتٍ لم تقعْ: تأمَّلْ متى قالَ اللهُ لموسى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَا﴾. قالها وهما مُقبِلانِ على أعتى طاغيةٍ عرفتْه الأرضُ، على فرعونَ الذي ادَّعى الرُّبوبيَّةَ، وبيدِه الجيوشُ والسِّجونُ والسِّياطُ. في تلك اللحظةِ التي يَحِقُّ فيها الخوفُ، جاءَ الأمرُ الإلهيُّ: لا تَخافا. لأنَّ الذي معكما أعظمُ من كلِّ ما تَخافانِه. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

لاحِظْ كيف قَرنَ نَهيَه عن الخوفِ بمعيَّته: لا تخافا، لأنّي معكما. فالخوفُ إنّما يَتسلَّلُ إلى القلبِ حين يَظُنُّ أنّه وحدَه في مواجهةِ ما يُخيفُه؛ فإذا أَيقنَ أنَّ اللهَ معه، تلاشى الخوفُ، مهما عَظُمَ المُخيفُ. فالمسألةُ ليست في حجمِ ما تَخافُه، بل في حجمِ مَن تَستنِدُ إليه. وأيُّ خوفٍ يَبقى في قلبٍ يَستنِدُ إلى الذي يقولُ للشيءِ كنْ فيكونُ؟

إنَّ أكثرَ ما يُعذِّبُ الإنسانَ ليس ما يَقعُ به، بل ما يَتوقَّعُ أن يَقعَ. فالمصائبُ الحقيقيَّةُ حين تَنزِلُ يُنزِلُ اللهُ معها من الصبرِ ما يُطاقُ به حَملُها؛ أمّا مصائبُ الخيالِ فتَنزِلُ بلا صبرٍ، لأنَّها لم تَقعْ أصلًا، فأنتَ تَحملُ ثِقلَها بلا العونِ الذي يُنزِلُه اللهُ مع الواقعِ. فكم من بلاءٍ عَذَّبكَ انتظارُه سِنينَ، ثمَّ لم يَقعْ! وكم من يومٍ خِفتَه فجاءَ أهونَ ممّا ظننتَ!

والخوفُ من المستقبلِ سوءُ ظنٍّ بالمُدبِّرِ. فأنتَ حين تَخافُ الغدَ تَتصرَّفُ كأنَّكَ ستُواجِهُه وحدَكَ، ونَسيتَ أنَّ الذي دبَّرَ أمسَكَ ويومَكَ هو الذي سيُدبِّرُ غدَكَ، وأنّه لم يَترُكْكَ يومًا، فكيف يَترُكُكَ غدًا؟ أنتَ لا تَملكُ الغدَ، ولا تَعلمُ ما فيه، فلماذا تَستدينُ همومَه اليومَ؟ عِشْ يومَكَ الذي أنتَ فيه، ودَعِ الغدَ لمن يَملكُه.

فيا أيُّها الخائفُ، ضَعْ يدَكَ على قلبِكَ وقلْ: حسبيَ اللهُ. فإنَّ هذه الكلمةَ حِصنٌ لا يُخترَقُ. قالها إبراهيمُ وهو يُلقى في النارِ فكانتْ عليه بردًا وسلامًا، وقالها محمدٌ ﷺ حين قيلَ له إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم، فما زادَه ذلك إلا إيمانًا. فمَن كان اللهُ حسبَه فقد استَغنى عن كلِّ حسيبٍ، ومَن توكَّلَ على اللهِ فهو حسبُه. أَلقِ همَّكَ عليه، ونَمْ قريرَ العينِ؛ فإنَّ الذي يَحرُسُكَ لا يَنامُ.

(الرِّسَالَةُ الحاديةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ فَخَابَ

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

[البقرة: 216]

يا مَن سعى إلى بابٍ فأُغلِقَ في وجهِه، فظنَّ أنَّ الخيرَ كلَّه كان خلفَ ذلك البابِ: ما أَضيقَ نظرَ الإنسانِ، وما أَوسعَ علمَ اللهِ! تُريدُ الشيءَ وأنتَ لا ترى إلا وجهَه الظاهرَ الجميلَ، واللهُ يرى باطنَه الذي فيه هلاكُكَ؛ فيَمنعُكَ رحمةً، وأنتَ تَحسبُ المنعَ حِرمانًا. ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

كم من بابٍ أُغلِقَ في وجهِ عبدٍ فبكى، ثمَّ تبيَّنَ له بعدَ حينٍ أنَّ خلفَ ذلك البابِ هاويةً كانتْ ستَبتلِعُه! وكم من صفقةٍ فاتتْ فحَزِنَ صاحبُها، ثمَّ عَلِمَ أنّها كانتْ خرابَه لو تَمَّتْ! وكم من فراقٍ ظنَّه الإنسانُ نهايةَ الدنيا، فإذا هو بدايةُ حياةٍ أَطيبَ! إنَّ اللهَ يَصرِفُ عنكَ ما لا تُطيقُ، ويَمنعُكَ ما يَضُرُّكَ، ويُؤخِّرُ عنكَ ما لم يَحِنْ وقتُه؛ فما كلُّ منعٍ حِرمانًا، بل ربَّما كان أعظمَ العطاءِ.

المؤمنُ الحقُّ هو الذي يَثِقُ باختيارِ اللهِ له أكثرَ من ثقتِه باختيارِه لنفسِه. لأنّه يَعلمُ أنّه يَختارُ بعلمٍ ناقصٍ وهوًى غالبٍ ونظرٍ قصيرٍ، واللهُ يَختارُ بعلمٍ محيطٍ ورحمةٍ سابقةٍ وحكمةٍ بالغةٍ. فأيُّ الاختيارينِ أَولى بالثقةِ؟ ولو خُيِّرتَ بين أن يَختارَ لكَ اللهُ أو تَختارَ لنفسكَ، ثمَّ عَقلتَ، لَاخترتَ اختيارَ اللهِ ولو خالفَ هواكَ؛ فإنّه لا يُريدُ بكَ إلا خيرًا، وأنتَ قد تُريدُ بنفسكَ شرًّا وأنتَ لا تَشعُرُ.

فإذا رأيتَ القدرَ يَسوقُكَ إلى غيرِ ما أردتَ، فلا تُقاوِمْ بقلبِكَ وإنْ قاومتَ بسعيكَ المشروعِ. سِرْ مع القدرِ لا ضدَّه، وقلْ: لعلَّ فيما ساقَني اللهُ إليه خيرًا لا أُبصِرُه الآنَ. فإنَّ الأيامَ كفيلةٌ أن تُريَكَ من حكمةِ المنعِ ما يُخجِلُكَ من إلحاحِكَ في الطلبِ. وكثيرًا ما يقفُ العبدُ بعدَ سنينَ فيقولُ: الحمدُ لله الذي لم يُعطِني ما سألتُ، فقد كان في منعِه نجاتي.

فيا مَن خابَ ظنُّه في أمرٍ من أمورِ الدنيا، لا تَخبْ ظنُّكَ في ربِّكَ، فإنَّ اللهَ عندَ ظنِّ عبدِه به؛ فإنْ ظننتَ أنَّ كلَّ منعٍ منه حِكمةٌ، ووَجدتَ في كلِّ فواتٍ لطفًا، عِشتَ في رَوحٍ ورَيحانٍ، لا يُنغِّصُ عليكَ فواتُ مطلوبٍ، ولا يُقلِقُكَ حصولُ مكروهٍ. وأَحسِنِ الظنَّ به دائمًا؛ فما خابَ مَن أَحسنَ الظنَّ بالله، وإنِ اختلفتِ الأبوابُ عمّا تَمنَّى.

(الرِّسَالَةُ الثانيةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ ظُلِمَ وَلَمْ يَجِدْ نَاصِرًا

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾

[إبراهيم: 42]

يا مَن ظُلِمَ فطالَ ظلمُه، وصرخَ فلم يُنصِفْه أحدٌ، وطرقَ أبوابَ الناسِ فأُوصِدتْ: ثَمَّةَ بابٌ لا يُغلَقُ، وقاضٍ لا يَجورُ، ومُنتقِمٌ لا يَغفُلُ. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾. قد يَتأخَّرُ الإنصافُ، ولكنّه لا يَضيعُ؛ فإنَّ اللهَ لا يَنسى ولا يَغفُلُ، وإنّما يُمهِلُ الظالمَ ليَزدادَ إثمًا، ثمَّ يأخُذُه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

إنَّ تأخيرَ العقوبةِ عن الظالمِ ليس عَجزًا، حاشا لله، ولا رِضًا بظلمِه؛ إنّما هو إمهالٌ لحكمةٍ. فاللهُ يُملي للظالمِ ويَمُدُّ له في غَيِّه، حتى إذا ظنَّ أنّه أَفلتَ، وأنَّ لا حسيبَ عليه، أَخذَه بغتةً وهو لا يَشعُرُ. ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. فلا يَغُرَّنَّكَ تَقلُّبُ الظالمينَ في نعيمِهم، فإنّها أيامٌ معدودةٌ، ونهايةٌ محتومةٌ، وحسابٌ لا مَفرَّ منه.

وأنتَ، يا أيُّها المظلومُ، لكَ في ظُلامتِكَ ما ليس لظالِمكَ في قوَّتِه. فدعوةُ المظلومِ ليس بينها وبينَ اللهِ حجابٌ، يَرفعُها اللهُ فوقَ الغمامِ، ويقولُ: وعزَّتي وجلالي لأَنصُرنَّكَ ولو بعدَ

حينٍ. فأيُّ سلاحٍ أَمضى من دعوةٍ لا تُرَدُّ؟ وأيُّ نصيرٍ أَقوى من ربِّ العالمينَ؟ فلا تَستضعِفْ نفسَكَ وأنتَ تَملِكُ هذا السلاحَ، ولا تَستقوِ عليكَ ظالِمًا وهو مكشوفُ الظهرِ لسِهامِ الليلِ.

ولكنِ احذَرْ، يا صاحبي، أن يَجُرَّكَ الظلمُ إلى الظلمِ، فتَنتقِلَ من صفِّ المظلومينَ إلى صفِّ الظالمينَ وأنتَ لا تَشعُرُ. فإنَّ الألمَ قد يُعمي، والرغبةَ في الانتقامِ قد تُحيلُ الضحيَّةَ جلّادًا. فاصبِرْ، ولا تَتعجَّلْ أخذَ حقِّكَ بيدِكَ فتَقعَ فيما نَقَمتَ. وإنِ استطعتَ أن تَعفوَ مع القدرةِ فذلك أَعلى المقاماتِ، وأَقربُ إلى مغفرةِ اللهِ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

فيا أيُّها المكلومُ، ارفَعْ رأسَكَ، فما ضاعَ حقٌّ وراءَه مُطالِبٌ كاللهِ. سَلِّمْ أمرَكَ إليه، وثِقْ أنّه يَرى دمعَكَ في ظُلمةِ الليلِ، ويَسمعُ أنينَكَ حين يَنامُ الناسُ. لن يُضيِّعَكَ الذي يَعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصدورُ. وإنِ استبطأتَ نصرَه فاعلمْ أنّه يَنتظِرُ بكَ ساعةً هي خيرٌ لكَ، وأنَّ إنصافَه حين يأتي يَجعلُكَ تَنسى طولَ الانتظارِ. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

(الرِّسَالَةُ الثالثةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَثْقَلَهُ الفَقْرُ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

[فاطر: 15]

يا مَن يَشكو فقرَ اليدِ: هل تأمَّلتَ يومًا فقرًا أعظمَ لا يَنجو منه غنيٌّ ولا فقيرٌ؟ إنّه فقرُكَ إلى اللهِ. ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ خطابٌ للناسِ جميعًا، لملوكِهم قبلَ سُوقتِهم، ولأغنيائِهم قبلَ فقرائِهم، فأغنى أهلِ الأرضِ فقيرٌ إلى اللهِ في نَفَسٍ يَتنفَّسُه، وفي دقَّةِ قلبٍ تَخفِقُ، وفي لحظةِ عافيةٍ يَعيشُها. وإذا كان الجميعُ فقراءَ إليه، فما فضلُ الغنيِّ على الفقيرِ إلا في متاعٍ زائلٍ لا يُغني عن الله شيئًا؟

إنَّ فقرَ المالِ فقرٌ صغيرٌ، يَزولُ بدرهمٍ، ويَنتهي بموتٍ. أمّا الفقرُ الأكبرُ فأن يكونَ قلبُكَ فقيرًا إلى ربِّه، محتاجًا إليه، لاهجًا بذكرِه، مُنكسرًا بين يديه. وهذا الفقرُ — عجبًا — هو عينُ الغِنى! فأَغنى الناسِ مَن أَحسنَ فقرَه إلى اللهِ، وأَفقرُهم مَن استغنى بقلبِه عن اللهِ وإنِ امتلأتْ خزائنُه. لذلك كان من دعاءِ الصالحينَ: اللهمَّ أَغنِني بفقري إليكَ، ولا تُفقِرْني بغنايَ عنكَ.

ولعلَّ اللهَ يَبتلي عبدَه بفقرِ المالِ ليُذكِّرَه بفقرِه إليه؛ فإنَّ الغِنى قد يُنسي العبدَ ربَّه، ويَملأُ قلبَه بالدنيا حتى لا يَبقى فيه للآخرةِ موضعٌ. وكم من فقيرٍ دخلَ الجنَّةَ قبلَ الغنيِّ بخمسمئةِ عامٍ، لأنّه لم يكنْ عليه حسابُ مالٍ! فلا تَنظُرْ إلى فقرِكَ نظرةَ السَّاخطِ، فربَّما كان سِترًا عليكَ من فتنةٍ، وحاجزًا بينكَ وبينَ طغيانٍ. وربَّ نعمةٍ في ثوبِ فقرٍ، ونِقمةٍ في ثوبِ غِنًى.

واعلمْ أنَّ الغِنى الحقيقيَّ ليس غِنى اليدِ، بل غِنى القلبِ. فكم من مالكٍ للملايينِ وقلبُه فقيرٌ لا يَشبعُ، يَجمعُ ويَخافُ ويَحسُدُ، لا يَهنأُ بما جمعَ! وكم من فقيرِ اليدِ غنيِّ القلبِ، راضٍ بما قَسمَ اللهُ له، يَبيتُ آمنًا في سِربِه، مُعافًى في بدنِه، عندَه قوتُ يومِه، فكأنّما حِيزتْ له الدنيا! قال النبيُّ ﷺ: «ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكنَّ الغِنى غِنى النفسِ».

فيا أيُّها الفقيرُ إلى اللهِ — وكلُّنا فقراءُ — أَحسِنْ فقرَكَ إليه، واسألْه من فضلِه، فإنّه يُحبُّ أن يُسألَ ويَغضَبُ إن لم يُسألْ. ولا تُذِلَّ فقرَكَ لبابِ مخلوقٍ مثلِكَ، فقيرٍ إلى اللهِ كفقرِكَ، لا يَملكُ لنفسِه رزقًا فكيف يَملكُ لكَ؟ ارفَعْ حاجتَكَ إلى الغنيِّ الذي لا تَنفدُ خزائنُه، واقرَعْ بابَه وحدَه، فما خابَ مَن قَرعَ بابَ الغنيِّ الحميدِ.

(الرِّسَالَةُ الرابعةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

[النور: 35]

يا مَن يَمشي في الحياةِ وقد أَظلمَ عليه كلُّ شيءٍ، لا يَكادُ يُبصِرُ خُطوةً أمامَه: ثَمَّةَ نورٌ إن دخلَ قلبَكَ لم يَبقَ فيه ظلامٌ. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ فما استنارتِ السماواتُ إلا بنورِه، ولا أَشرقتِ الأرضُ إلا بضيائه، ولا اهتدى قلبٌ إلا بهدايته. فإن استظلمَ عليكَ طريقُكَ فاعلمْ أنَّ الظلامَ ليس في الطريقِ، بل في القلبِ الذي حُجِبَ عن النورِ؛ فأَقبِلْ على مصدرِ النورِ يُضِئْ لكَ ما أَظلمَ.

إنَّ الظلماتِ التي يَشكوها الناسُ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ: ظلمةُ الجهلِ، وظلمةُ الذنبِ، وظلمةُ الغفلةِ، وظلمةُ الحَيرةِ. ولا يُبدِّدُها كلَّها إلا نورٌ واحدٌ هو نورُ الإيمانِ باللهِ. فمَن أَضاءَ اللهُ قلبَه رأى الطريقَ واضحًا حيثُ يَتخبَّطُ الآخرونَ، وأَبصرَ في ظلمةِ الفتنِ ما لا يُبصِرُه أهلُ العيونِ الصحيحةِ؛ لأنَّ البصيرةَ نورٌ في القلبِ، والبصرَ نورٌ في العينِ، وكم من مُبصِرٍ أعمى القلبِ، وكم من أعمى العينِ بصيرِ القلبِ!

وهذا النورُ يا صاحبي لا يُشترى بمالٍ، ولا يُورَثُ عن أبٍ، ولا يُنالُ بذكاءٍ؛ إنّما هو منحةٌ من اللهِ يَقذِفُها في قلبِ مَن أَقبلَ عليه صادقًا. فمَن أرادَ النورَ فليَطرُقْ بابَه من حيثُ يُؤتى: من تلاوةِ كتابِه الذي سمَّاه نورًا، ومن مُجالَسةِ ذكرِه، ومن تطهيرِ القلبِ من أدرانِ المعاصي التي تُطفئُ النورَ. فالمعصيةُ تُظلِمُ القلبَ كما يُظلِمُ الدُّخانُ زُجاجةَ المصباحِ، حتى لا يَكادُ يَنفُذُ منها ضوءٌ.

أرأيتَ كيف أنَّ اللهَ ضربَ لنورِه مثلًا: مِشكاةٌ فيها مصباحٌ، والمصباحُ في زجاجةٍ صافيةٍ كأنّها كوكبٌ دُرِّيٌّ، يُوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؟ ذلك مَثَلُ نورِ الإيمانِ في قلبِ المؤمنِ: صافٍ لا تَشوبُه شائبةٌ، مُتوقِّدٌ لا يَخبو، يَتضاعَفُ نورًا على نورٍ كلَّما ازدادَ القلبُ قُربًا. فاعمَلْ على أن يكونَ قلبُكَ تلك الزجاجةَ الصافيةَ، لا زجاجةً كُدِّرتْ بالذنوبِ فحُجِبَ عنها الضياءُ.

فيا أيُّها الحائرُ في الظلامِ، لا تَبحثْ عن النورِ في مصابيحِ الأرضِ، فإنّها تَخبو وتَنطفئُ، وتُضيءُ خُطوةً وتُظلِمُ أخرى. اطلُبِ النورَ من مصدرِه، من ربِّ النورِ، وقلْ كما كان النبيُّ ﷺ يقولُ: اللهمَّ اجعلْ في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا،

وعن شمالي نورًا، واجعلْني نورًا. فمَن ملأَ اللهُ قلبَه نورًا مشى في الناسِ يَحمِلُ ضياءً، يَهتدي به ويُهتدى به، فلا تَضِلُّ به قدمٌ ولا يَتيهُ به طريقٌ.

(الرِّسَالَةُ الخامسةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ نَسِيَ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرٌ

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾

[العنكبوت: 64]

يا مَن شَغلتْه الدنيا حتى ظنَّها الغايةَ لا الطريقَ: قِفْ لحظةً وتأمَّلْ كيف وصفَها ربُّكَ. سمَّاها ﴿لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾، وسمَّى الآخرةَ ﴿الْحَيَوَانُ﴾؛ أي الحياةَ الحقيقيَّةَ. فكأنَّ ما نَحياهُ هنا ليس حياةً بالمعنى الكاملِ، بل ظِلُّ حياةٍ، أو مُقدِّمةٌ لها. والحياةُ الحقُّ هناك، حيثُ لا موتَ ولا شيخوخةَ ولا زوالَ. فمَن جعلَ هذه الدنيا أكبرَ همِّه فقد باعَ الجوهرةَ واشترى الزُّجاجةَ، وآثرَ الظِّلَّ على الأصلِ.

إنَّ الدنيا معبرٌ لا مستقرٌّ، وقنطرةٌ لا دارٌ. والعاقلُ يَعبُرُ القنطرةَ ولا يَبني عليها بيتًا، فما بُنيَ على جِسرٍ بيتٌ إلا هُدِمَ. تأمَّلْ حالَكَ فيها: جِئتَها ولم تَستأذِنْ، وستُغادِرُها ولن تُستأذَنَ، ولا تَملِكُ من أمرِ دخولِكَ ولا خروجِكَ شيئًا. فكيف تَطمئنُّ إلى دارٍ هذا شأنُكَ فيها؟ وكيف تَبني آمالَكَ كلَّها على أرضٍ أنتَ فيها عابرُ سبيلٍ؟ قال النبيُّ ﷺ: «كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ».

ولستُ أَدعوكَ إلى أن تَهجُرَ الدنيا، أو تَترُكَ نصيبَكَ منها، فما ذلك من الدينِ في شيءٍ. إنّما أَدعوكَ ألّا تَجعلَها في قلبِكَ. خُذْ منها ما شئتَ بيدِكَ، ولكنْ لا تُدخِلْها قلبَكَ. اجعلِ الدنيا في يدِكَ لا في فؤادِكَ، كما تَحملُ السفينةُ الماءَ من تحتِها فتَجري، فإذا دخلَها الماءُ غَرِقتْ. فالمالُ في يدِكَ زادٌ وقوّةٌ على الخيرِ، والمالُ في قلبِكَ هَمٌّ وعذابٌ وفتنةٌ.

واعلمْ أنَّ الذي يَعمُرُ آخرتَه لا تَفوتُه دنياهُ، أمّا الذي يَعمُرُ دنياهُ فتَفوتُه آخرتُه. فمَن كانتِ الآخرةُ همَّه جمعَ اللهُ له شملَه، وجعلَ غِناهُ في قلبِه، وأتتْه الدنيا وهي راغمةٌ؛ ومَن كانتِ الدنيا همَّه فرَّقَ اللهُ عليه أمرَه، وجعلَ فقرَه بين عينيه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. فأيُّهما أَربحُ صفقةً: مَن ربِحَ الآخرةَ والدنيا، أم مَن خسِرَ الآخرةَ وتعبَ في الدنيا؟

فيا أيُّها المسافرُ الذي ظنَّ نفسَه مُقيمًا، تزوَّدْ لسفرِكَ قبلَ أن يُطويَ بِساطُ العُمرِ. فما هي إلا سِنونٌ قِصارٌ، تَنقضي كما يَنقضي الحُلمُ، ثمَّ تَستيقظُ على الحقيقةِ. اجعلْ لكَ في كلِّ يومٍ زادًا للطريقِ الطويلِ: صلاةً تُقيمُها، وذنبًا تُقلِعُ عنه، وصدقةً تُخفيها، وقلبًا تُصلِحُه. فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى، وإنَّ الرابحَ حقًّا مَن باعَ فانيًا واشترى باقيًا، وإنَّ الخاسرَ مَن باعَ

باقيًا واشترى فانيًا. ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

(الرِّسَالَةُ السادسةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ تَعِبَ مِنْ نَفْسِهِ

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾

[الشمس: 7-9]

يا مَن أَتعبتْه نفسُه، تَعِدُ ثمَّ تُخلِفُ، وتَتوبُ ثمَّ تَعودُ، حتى ظنَّ أنّه لا خيرَ فيه: اعلمْ أنَّكَ لستَ وحدَكَ في هذه المعركةِ، فما خُلِقتِ النفسُ إلا وفيها هذا الصراعُ. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾؛ أَودعَ اللهُ في نفسِكَ نزوعًا إلى الشرِّ ونزوعًا إلى الخيرِ، وجعلَ الحياةَ ميدانًا بينهما. فتَعبُكَ من نفسِكَ ليس دليلَ هلاكِكَ، بل دليلُ أنَّ فيكَ حيًّا يُقاوِمُ؛ فالميتُ لا يَتعبُ ولا يُصارِعُ.

إنَّ أخطرَ ما يُصيبُ العبدَ أن يَيأسَ من إصلاحِ نفسِه، فَيستسلِمَ لها كما هي، ويقولَ: هكذا خُلِقتُ، ولن أَتغيَّرَ، وهذا مكرُ الشيطانِ؛ فهو يُوهِمُكَ أنَّ التغييرَ مستحيلٌ لتَترُكَ المحاولةَ، فتَستمرَّ في غَيِّكَ وأنتَ تَظُنُّ نفسَكَ معذورًا. ولكنَّ اللهَ الذي خلقَ النفسَ يَعلمُ أنّها قابلةٌ للتزكيةِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾؛ فلو كانتِ النفسُ لا تَتزكَّى لما أمرَ بتزكيتِها، ولما جعلَ الفلاحَ في ذلك.

والتزكيةُ يا صاحبي عملُ العُمرِ كلِّه، لا لحظةً ولا يومًا. فلا تَنتظِرْ أن تَستقيمَ نفسُكَ دُفعةً واحدةً، فتَيأسَ إن تعثَّرتَ. النفسُ كالبستانِ: يَحتاجُ إلى سَقيٍ كلَّ يومٍ، وقلعِ حشائشَ لا تَنقطِعُ، وصبرٍ على بطءِ الثمرِ. فإنْ أهملتَه يومًا نبتَ فيه الشوكُ من جديدٍ. فلا تَملَّ من مُعاودةِ إصلاحِها كلَّما فسدتْ، فتلك هي المعركةُ التي لا تَنتهي إلا بالموتِ.

واعلمْ أنَّ سقوطَكَ ليس نهايةَ الطريقِ، إنّما النهايةُ أن تَبقى ساقطًا. فالصالحونَ مَن إذا أذنبوا تابوا، وإذا سقطوا نهضوا، وإذا انطفأتْ فيهم شعلةٌ أشعلوها من جديدٍ. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾. فالعبرةُ ليست بألّا تَقعَ، بل بأن تَقومَ كلَّما وقعتَ، ولا تَدَعِ الشيطانَ يُقنِعُكَ بأنَّ القيامَ صارَ مستحيلًا.

فيا أيُّها المُتعَبُ من نفسِه، ارفُقْ بها في إصلاحِها كما يَرفُقُ الطبيبُ الحكيمُ في علاجِ مريضِه؛ لا تُحمِّلْها فوقَ طاقتِها فتَنفِرَ، ولا تُدلِّلْها فتَطغى. سِرْ بها إلى اللهِ خُطوةً خُطوةً، وكلَّما سقطتَ فاستغفِرْ وانهَضْ، ولا تَجعلْ سقطةً واحدةً تَهدِمُ ما بنيتَ في سِنينَ. فإنَّ اللهَ يُحِبُّ من العبدِ أن يُعاودَ قَرعَ بابِه ولو أذنبَ ألفَ مرَّةٍ، ويَكرَهُ منه أن يَقنَطَ فيُغلِقَ البابَ

على نفسِه. جاهِدْ نفسَكَ في اللهِ، فقد وعدَ المجاهدينَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

(الرِّسَالَةُ السابعةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ فَاتَهُ القِطَارُ فَظَنَّ الحَيَاةَ فَاتَتْ

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

[الضحى: 6-8]

يا مَن يَنظُرُ إلى الوراءِ فلا يرى إلا فُرصًا فاتتْ، وأبوابًا أُغلِقتْ، وسنينَ ضاعتْ، فيَظُنُّ أنَّ الحياةَ قد تجاوزتْه: تعالَ اقرأْ معي كيف يُذكِّرُ اللهُ عبدَه بماضٍ لم يكنْ سهلًا، ليَبنيَ عليه رجاءً في مستقبلٍ آتٍ. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾؛ يُخاطِبُ اللهُ حبيبَه ﷺ فيُذكِّرُه: كنتَ يتيمًا فما تركتُكَ، وكنتَ حائرًا فهديتُكَ، وكنتَ فقيرًا فأَغنيتُكَ. وكأنّه يقولُ لكلِّ عبدٍ: انظُرْ كيف كنتَ، وانظُرْ كيف صِرتَ، ثمَّ ثِقْ بمن نقلَكَ من حالٍ إلى حالٍ.

إنَّ اللهَ يُريدُ أن يُعلِّمَكَ درسًا في الرجاءِ من خلالِ ماضيكَ أنتَ. فكم من ضِيقٍ مررتَ به ظننتَه لن يَزولَ، ثمَّ زالَ! وكم من بابٍ أُغلِقَ ففُتِحَ غيرُه خيرٌ منه! وكم من ليلةٍ بكيتَ فيها ثمَّ ضَحِكتَ! فمَن نقلَكَ في الماضي من عُسرٍ إلى يُسرٍ، ومن ضيقٍ إلى سَعةٍ، قادرٌ أن يَنقُلَكَ اليومَ أيضًا. فلا تَنظُرْ إلى ماضيكَ نظرةَ الحسرةِ، بل نظرةَ العِبرةِ؛ فإنَّ فيه شواهدَ على لُطفِ اللهِ بكَ لو تأمَّلتَها.

والذين يَظُنُّونَ أنَّ الحياةَ فاتتْهم إنّما نظروا إلى بابٍ واحدٍ أُغلِقَ، ونَسوا أنَّ اللهَ يَملكُ من الأبوابِ ما لا يُحصى. فليس في قاموسِ اللهِ بابٌ أخيرٌ؛ فما دُمتَ حيًّا فثَمَّةَ فُرصةٌ، وما دام في العمرِ بقيَّةٌ فثَمَّةَ أملٌ. كم من إنسانٍ بدأَ من جديدٍ بعدَ أن ظنَّ أنَّ كلَّ شيءٍ انتهى، فإذا بدايتُه الثانيةُ خيرٌ من أُولاهُ! فما فاتَ من العمرِ لا يَعودُ، ولكنَّ ما بقيَ منه يَكفي لِبناءِ حياةٍ جديدةٍ، إن أنتَ أحسنتَ استعمالَه.

ولعلَّ ما تَظُنُّه فَواتًا كان في حقيقتِه نجاةً. فذلك القطارُ الذي فاتَكَ ربَّما كان يَحمِلُكَ إلى حيثُ لا تُحِبُّ، فأَخَّرَكَ اللهُ عنه رحمةً بكَ. وتلك الفرصةُ التي ضاعتْ ربَّما ادَّخرَ اللهُ لكَ خيرًا منها، لم يَحِنْ وقتُه بعدُ. فثِقْ أنَّ توقيتَ اللهِ أحكمُ من توقيتِكَ، وأنَّ تأخيرَه ليس حِرمانًا، بل انتظارٌ لِما هو أَجملُ. ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

فيا مَن ظنَّ أنَّ حياتَه انتهتْ عند خيبةٍ، انهَضْ؛ فإنَّ الذي آواكَ يتيمًا لن يُضيِّعَكَ اليومَ، والذي هداكَ ضالًّا لن يَترُكَكَ حائرًا، والذي أَغناكَ عائلًا لن يَذرَكَ فقيرًا. مُدَّ يدَكَ إليه من جديدٍ، وابدأْ من حيثُ أنتَ، لا من حيثُ تَمنَّيتَ أن تكونَ. فما دام بابُ اللهِ مفتوحًا فلا

معنى لليأسِ، وما دامتِ الشمسُ تُشرِقُ كلَّ صباحٍ فثَمَّةَ فرصةٌ جديدةٌ يَمنحُكَها اللهُ لتَبدأَ.

فلا تُضيِّعْ حاضرَكَ حزنًا على ماضيكَ، فتَخسرَ الاثنينِ معًا.

(الرِّسَالَةُ الثامنةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى قَلْبٍ قَسَا فَاشْتَاقَ إِلَى الرِّقَّةِ

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾

[الحديد: 16]

يا مَن يَشعُرُ أنَّ قلبَه قد تحجَّرَ، لا يَبكي عند موعظةٍ، ولا يَخشَعُ عند تلاوةٍ، ولا يَجِدُ لِلطاعةِ حلاوةً كما كان: هذا العتابُ اللطيفُ لكَ. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ سؤالٌ فيه من الحُنُوِّ ما يَكسِرُ القلوبَ. كأنَّ الله يقولُ لعبدِه: أما آنَ لكَ أن تَعودَ إليَّ؟ أما طالَ عليكَ الأمدُ في غفلتكَ؟ إنّه عتابُ محبٍّ يَشتاقُ إلى قلبِ عبدِه أكثرَ ممّا يَشتاقُ العبدُ إليه.

إنَّ قسوةَ القلبِ داءٌ لا يَشعُرُ به صاحبُه في أوَّلِه، فيَتفاقمُ. وله أسبابٌ يَعرِفُها مَن تأمَّلَ نفسَه: كثرةُ الذنوبِ حتى يَألفَها القلبُ، والغفلةُ عن ذكرِ اللهِ حتى يَصدأَ، والانغماسُ في الدنيا حتى تَملأَ القلبَ فلا يَبقى فيه للآخرةِ موضعٌ، وطولُ الأملِ حتى يَنسى العبدُ الموتَ فيَتراخى. فمتى اجتمعتْ هذه على قلبٍ تحجَّرَ، حتى لَيَمُرُّ به ما يُبكي الصخرَ فلا يَهتَزُّ.

ولكنِ اطمئنَّ، يا صاحبي؛ فإنَّ شوقَكَ إلى الرِّقَّةِ دليلُ حياةٍ. فالقلبُ الميتُ لا يَشعُرُ بقسوتِه، ولا يَشتاقُ إلى خشوعِه؛ إنّما يَشعُرُ بالقسوةِ قلبٌ فيه بقيَّةٌ من حياةٍ تَستغيثُ. فما دُمتَ تَتألَّمُ من قسوتِكَ، وتَحِنُّ إلى دمعةٍ كنتَ تَذرِفُها، فأبشِرْ؛ فالطريقُ إلى اللهِ ما زالَ مفتوحًا، والقلبُ الذي يَشكو القسوةَ أقربُ إلى اللِّينِ من قلبٍ رَضِيَ بقسوتِه فما اشتكى.

وعلاجُ القلبِ القاسي يا صاحبي في أمورٍ جرَّبها الصالحونَ: أَدمِنِ الجلوسَ إلى القرآنِ بتدبُّرٍ، لا كمَن يَقرأُ حروفًا، بل كمَن يَستمِعُ رسالةً؛ وأَكثِرْ من ذكرِ الموتِ الذي يُرِقُّ أقسى القلوبِ؛ وزُرْ مريضًا أو قبرًا لِيَتَّعِظَ قلبُكَ؛ وأَطعِمْ يتيمًا وامسحْ على رأسِه، فقد قال النبيُّ ﷺ لمن شكا قسوةَ قلبِه: «امسحْ رأسَ اليتيمِ، وأَطعِمِ المسكينَ». فرحمةُ الضعفاءِ تُلِينُ القلبَ الحجَرَ.

فيا أيُّها المشتاقُ إلى قلبٍ خاشعٍ، لا تَيأسْ من عودةِ الرِّقَّةِ. فالقلوبُ بيدِ اللهِ يُقلِّبُها كيف يشاءُ، والذي أَقسى قادرٌ أن يُلِينَ، والذي أَظلمَ قادرٌ أن يُنيرَ. أَلِحَّ عليه بالدعاءِ: يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينِكَ، واصرِفْ قلبي إلى طاعتِكَ. واقرَعْ بابَه بالمُداومةِ على الطاعةِ

وإن لم تَجِدْ لها حلاوةً في البدايةِ؛ فإنَّ القلبَ يَلِينُ بالمُداومةِ كما يَلِينُ الحديدُ بالنارِ، وستَعودُ إليكَ دمعتُكَ حين يأذنُ اللهُ، فتَعرِفُ أنَّ الله ما كان ليَترُكَ قلبًا اشتاقَ إليه.

(الرِّسَالَةُ التاسعةَ عشْرةَ)

رِسَالَةٌ إِلَى مَنْ أَثْقَلَهُ الحَسَدُ وَنَظَرُ النَّاسِ

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

[الزخرف: 32]

يا مَن يُتعِبُ قلبَه بالنظرِ إلى ما في أيدي الناسِ، فيَحسُدُ هذا على مالِه، وذاكَ على جاهِه، وثالثًا على راحتِه: قِفْ، فقد أراحَكَ اللهُ من هذا العناءِ لو قَبِلتَ. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾؛ فالأرزاقُ والحظوظُ قِسمةٌ قسَمها اللهُ بحكمتِه، لا بجُزافٍ ولا بمحاباةٍ. فحين تَحسُدُ أخاكَ على ما أُوتِيَ، فأنتَ في الحقيقةِ تَعترِضُ على القِسمةِ، وتَتَّهِمُ القاسمَ في عدلِه وحكمتِه؛ وأيُّ جُرأةٍ على اللهِ أعظمُ من هذه؟

إنَّ الحسدَ نارٌ تَحرِقُ صاحبَها قبلَ أن تَصِلَ إلى المحسودِ. فالمحسودُ نائمٌ في فراشِه هانئٌ بنعمتِه، والحاسدُ ساهرٌ يَتقلَّبُ على جَمرِ الغيظِ. تأمَّلْ عدلَ اللهِ في هذا: جعلَ الحسدَ عقوبةً مُعجَّلةً للحاسدِ في الدنيا قبلَ الآخرةِ. فالحاسدُ لا يَستريحُ؛ كلَّما رأى نعمةً على أحدٍ تألَّمَ، وكأنّه نَصَّبَ نفسَه رقيبًا على عطاءِ اللهِ للخَلقِ، يَتوجَّعُ من كلِّ عطاءٍ لم يَنَلْه. أيُّ عذابٍ أدومُ من هذا؟

ثمَّ إنَّ نظرَكَ إلى ما أُوتيَ الناسُ نظرٌ ناقصٌ خادعٌ؛ فأنتَ ترى ظاهرَ نعمتِهم ولا ترى باطنَ بلائِهم. ترى مالَ الغنيِّ ولا ترى سُهادَه وخوفَه على مالِه؛ وترى مَنصِبَ ذي الجاهِ ولا ترى ما يُكابِدُه من الهمومِ والأعداءِ؛ وترى ابتسامةَ مَن تَظُنُّه سعيدًا ولا ترى ما وراءَها من جراحٍ. فما من أحدٍ إلا وله بلاءٌ تَحمَدُ اللهَ أنّه لم يَنزلْ بكَ. ولو كُشِفَ لكَ عن حقائقِ الناسِ لَرَضِيتَ بحالِكَ، ولَحَمِدتَ الله على ما صَرفَ عنكَ.

واعلمْ أنَّ اللهَ ما فاضلَ بين عبادِه في الأرزاقِ عبثًا، بل ليَبتليَهم: يَبتلي الغنيَّ بغناهُ أيَشكُرُ أم يَطغى، ويَبتلي الفقيرَ بفقرِه أيَصبرُ أم يَسخَطُ. فالدنيا كلُّها دارُ ابتلاءٍ، والحظوظُ فيها ليست مقاييسَ للكرامةِ عند اللهِ؛ فكم من غنيٍّ حقيرٍ عند اللهِ، وكم من فقيرٍ لو أَقسمَ على اللهِ لأَبَرَّه! ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾؛ فالميزانُ التقوى، لا المالُ ولا الجاهُ ولا الحظُّ.

فيا مَن أَتعبَه الحسدُ، أَرِحْ قلبَكَ، وانظُرْ إلى مَن هو دونَكَ لا إلى مَن هو فوقَكَ؛ فذلك أَجدرُ ألّا تَزدريَ نعمةَ اللهِ عليكَ. وإذا رأيتَ نعمةً على أخيكَ فادعُ له بالبركةِ، وقُلْ: اللهمَّ بارِكْ له وزِدْني من فضلِكَ؛ فتَنقلبَ حسرتُكَ خيرًا لكَ وله. فإنَّ القناعةَ كنزٌ لا يَفنى،

والراضيَ بقِسمةِ اللهِ يَعيشُ في جنَّةٍ معجَّلةٍ، والحاسدَ يَعيشُ في نارٍ معجَّلةٍ. فاختَرْ لنفسِكَ أيَّ الدارينِ تَعيشُ في دنياكَ.

(الرِّسَالَةُ العشرونَ)

رِسَالَةُ الوَدَاعِ: إِلَى مَنْ سَيُغْلِقُ هَذَا الكِتَابَ

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾

[الأعلى: 9-10]

يا صاحبي الذي رافقَني في هذه الرسائلِ من أوَّلِها إلى آخرِها: ها قد بلغنا مَحطَّةَ الوداعِ، وآنَ للكلماتِ أن تَسكُتَ ليَبدأَ العملُ. لقد كانت هذه أوراقًا حاولتُ فيها أن أَحمِلَ إليكَ شيئًا من نورِ كتابِ اللهِ، وأن أَدُلَّكَ على البابِ الذي إن دخلتَه لم تَخرُجْ منه إلا وقد تبدَّلَ قلبُكَ. فإنْ كنتُ قد وُفِّقتُ إلى ذلك فمِن فضلِ اللهِ وحدَه، وإنْ قصَّرتُ فأَستغفِرُ اللهَ وأَسألُكَ أن تَدعوَ لي.

ولا أُريدُ منكَ، يا صاحبي، أن يكونَ حظُّكَ من هذا الكتابِ ساعةً من مُتعةٍ عابرةٍ، تُغلِقُه بعدَها فتَعودَ إلى ما كنتَ عليه كأنْ لم يكنْ. فما كُتِبتْ هذه الرسائلُ لتُقرأَ وتُنسى، بل لتُعاشَ. فاجعَلْ من كلِّ رسالةٍ منها بابًا تَدخُلُ منه إلى آيةٍ من كتابِ اللهِ، ثمَّ ارجِعْ إلى القرآنِ نفسِه؛ فإنَّ ما كتبتُه ليس إلا قطرةً تَدُلُّكَ على البحرِ، وشُعاعًا يُشيرُ إلى الشمسِ. لا تَقِفْ عند القطرةِ وتَنسَ البحرَ، ولا تَكتفِ بالشُّعاعِ وتَحرِمْ نفسَكَ الشمسَ.

وأُوصيكَ ألّا تَهجُرَ كتابَ اللهِ بعدَ اليومِ؛ فاجعَلْ لكَ منه وِرْدًا كلَّ يومٍ، ولو آيةً تَتدبَّرُها. فإنَّ القرآنَ كالغيثِ، إن انقطعَ عن الأرضِ أَجدبتْ، وإن تعاهدَها أَخصبتْ وأَينعتْ. تعاهَدْ قلبَكَ بالقرآنِ كما تتعاهَدُ زرعَكَ بالماءِ؛ فما دُمتَ تَسقيهِ اخضرَّ وأَثمرَ، وإن قَطعتَ عنه الماءَ ذبلَ وقسا. واعلمْ أنَّ خيرَ ما تَنفُقُ فيه أنفاسُكَ أن تُنفَقَ في مُجالَسةِ كلامِ ربِّكَ.

ثمَّ اعلمْ أنَّ الذِّكرى إنّما تَنفعُ قلبًا حيًّا يَخشى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾. فإنْ وَجدتَ في نفسِكَ حين قرأتَ هذه الرسائلَ رِقَّةً وشوقًا وحنينًا إلى الله، فتلك بشارةٌ بأنَّ في قلبِكَ خيرًا كثيرًا، وأنَّ الله يُريدُ بكَ خيرًا. فلا تُطفِئْ هذه الجذوةَ بالإهمالِ، بل أَذكِها بالعملِ؛ فإنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطاعةِ وينقُصُ بالمعصيةِ، وما من يومٍ إلا وأنتَ فيه إمّا صاعدٌ وإمّا هابطٌ؛ فاحرِصْ أن تكونَ من الصاعدينَ.

وأخيرًا، يا مَن ستُغلِقُ هذا الكتاب: لا تَنسَني من دعوةٍ صالحةٍ في ظهرِ الغيبِ، فإنَّها لا تُرَدُّ، ويقولُ المَلَكُ: ولكَ مِثلُها. أَسألُ اللهَ الذي جمعَ بيني وبينَكَ على هذه الأوراقِ أن يَجمعَنا في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ، وأن يَجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهِه الكريمِ، ثِقلًا في موازيننا يومَ نَلقاهُ، وأن يَرزُقَنا وإيّاكَ تلاوةَ كتابِه على الوجهِ الذي يُحِبُّ ويَرضى. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وصلى الله وسلَّمَ على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.

تَمَّ الكتابُ بحمدِ اللهِ وحُسنِ توفيقِه

بريد من السماءِ

رسائلٌ قرآنيَّةٌ إلى القلبِ الظمآنِ